٣

بوادر التحوُّل

- نجران . . ويثرب ؟
- أبواب موصدة
- بيعة العقبة ، ومُتَّجَه الأحداث
- من أم القرى . . . إلى يثرب

حتى ذلك الحين ، كانت نجران ويثرب تبدوان بعيدتين عن مسرح الأحداث .

وفى نجران مركزُ النصرانية فى بلاد العرب .

وفى يثرب وشمال الحجاز : مستعمرات يهود .

وكان الظن ألا يختلف موقف نصارى نجران من الإسلام عن موقف يهود الشمال : وهؤلاء وأولئك أهل كتاب يتلون التوراة والإنجيل ويصدقون برسالات السماء .

لكن موقفهما فى الواقع التاريخى كان جد مختلف :

نصارى نجران عربٌ مؤمنون ، فيهم رهبان بررة كانوا ملء القلوب والأسماع هناك ، إخلاصاً فى العبادة وعزوفاً عن الشهوات وزهداً فى الدنيا ..

ويهود يثرب أجانب طارئون دخلاء ، يتظاهرون بالانتماء إلى الدين الموسوى ذريعة استغلال ، وفيهم أحبار ذوو عدد ، شُغلوا عن الدين بالدنيا . .

* * *

وقد رابَ نصارى نجران : قبيل الإسلام ، أن كان اليهود ممن روجوا لبشرى المبعث ، فهل قصدوا بهذا إلى أن يلقوا غشاوة على أبصار العرب ، كيلا تلمح على سحنتهم بصمة الجريمة النكراء التى ائتمروا فيها بالسيد المسيح عليه السلام ، وقد بعد العهد بها ، كما بعد مسرحها فى القرية الظالمة ، عن بلاد الحجاز ومهد المبعث ؟

لكن نصارى نجران ، لم يكونوا لينسوا هذه الجريمة . ولا نسوا جريمة يهودية أخرى لم يتقادم عليها الزمن ، بلغ عدد ضحاياها نحو عشرين ألفاً من

نصارى العرب فى نجران . أول عهدها بالنصرانية .

وقد بدأت المأساة حين وفد على ديارهم راهب نصرانى صالح ، ابتنى له خيمة بضواحى نجران وعكف على عبادة الله . فمال إليه فتى عربى من أهلها . وكانوا على دين العرب أهل شرك . قد اتخذوا نخلة باسقة وثناً لهم . وجعلوا لها يوم عيد يعكفون فيه على نخلتهم ، ويعلقون عليها أحسن ثيابهم وحلى نسائهم .

واسم الفتى العربى « عبد الله بن الثامر » وكان أبوه يرسله إلى ساحر مشهور هناك ليلقنه أسرار السحر . فكلما مر فى طريقه إلى الساحر بخيمة الراهب . أطال الوقوف قريباً من بابه . يصغى إلى تراتيله وصلواته ، و يرنو إليه فى تبتله وعبادته .

وعلى يد « ابن الثامر » تنصر أكثر عرب نجران . فسار إليهم « ذو نواس » بتحريض من يهود اليمن . ودعاهم إلى اليهودية وخيرهم بينها وبين القتل ، فاختاروا أن يموتوا على دينهم . وأمر « ذو نواس » جنوده — وكلهم يهود — فحفروا أخدوداً عميقاً وأوقدوا فيه النار ، وسيق ألوف من النصارى المؤمنين فأحرقوا فى الأخدود ، والمجرمون محيطون بهم يقتلون كل من يحاول الخلاص من النار ، ضرباً بالسيف .

وظلت مأساة الضحايا الشهداء — وفى الخبر أنهم قاربوا عشرين ألفاً من الرجال والنساء — تؤرق نجران حتى أوان المبعث .

وفى أولئك الضحايا المؤمنين ، وفى اليهود السفاحين أصحاب الأخدود ، نزلت آيات البروج :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ *

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ *
وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِى
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ *
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ
عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ »

* * *

وبُعث المصطفى عليه الصلاة والسلام فى مكة . ونجران على نصرانيتها وكان نصاراها بشهادة مؤرخى الإسلام : « أهل فضل وتقوى واستقامة » وقد سمعوا بأخبار المبعث من جيرانهم وأهل ملتهم نصارى الحبشة ، وتوقعوا أن يكون ليهود دورٌ خبيث مع الدين الجديد ، وإن لم يكن هذا الدور قد ظهر بعد .

وكان لا بد لنصارى نجران أن يطمئنوا إلى رأى فى الإسلام ، وذلك ما لا سبيل إليه فى دوامة الأخبار والشائعات التى تتعثر وتضطرب فى طريقها إليهم ، فتأتيهم مشوشة متناقضة .

وكان أن قرروا إرسال وفد منهم إلى مكة ، يأتيهم بالخبر اليقين عن هذا الدين الجديد ؛ ليكونوا منه على بينة .

* * *

أخذ الوفد طريقه شمالا إلى مكة ، عشرون رجلا من أهل الرأى والعلم فيهم ، يلتمسون أن يلقوا نبى الإسلام ويكلموه وينظروا فيما جاء به بعد ستة قرون وبضع سنين ، من ميلاد المسيح عليه السلام .

وفى الحرم المكى . كان اللقاء .

دنوا من المصطفى . وقد أخذ مجلسه عند الكعبة ، وسألوه فى دينه وحدثهم عليه الصلاة والسلام عن الإسلام فعرفوا أنه الحق من ربهم .

وتلا عليهم القرآن ففاضت أعينهم من الدمع خشوعاً وتأثراً ، وتفتح وجدانهم العربى المؤمن ، لتلك الكلمات تخشع لها صُمّ الجبال .

واستجابوا لله .

وفى طريقهم من مجلس المصطفى إلى باب البيت العتيق ، عرض لهم « أبو جهل بن هشام » فى نفر من طواغيت قريش ، شق عليهم أن يؤمن هؤلاء النصارى بنبوة محمد ، وهم أهل كتاب . .

قالوا لهم :

« خيبكم الله من ركب ! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم يطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال . ما نعلم ركباً أحمق منكم ! »

ردّ المؤمنون :

« سلام عليكم ، لا نُجاهلكم . لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه . لم نألُ أنفسنا وقومنا خيراً »

فيُروَى أن هذه الآيات ، من سورة المائدة ، نزلت فيهم :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا . وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمنوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً

وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ ».

صدق الله العظيم

* * *

فماذا عن يثرب عاصمة الشمال ؟

ماذا عن عصابات يهود ونبى الإسلام الذى طالما بشروا بمبعثه ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وما عرفهم التاريخ إلا قتلة الأنبياء وأعداء كل دين ؟

كمنوا هناك يرصدون المواجهة الأولى بين الإسلام والوثنية ، وأسماعهم مشدودة إلى مكة تلتقط أنباء الصراع الدائر ، وفى حسابهم أن قريشاً سوف تتكفل بالقضاء على الدعوة الجديدة فى مهدها ، فتريح اليهود الذين ما هدأ لهم بال منذ نزل كتاب الإسلام ، خوفاً من أن يكشف بنوره عما زيفت يهود من الديانة الموسوية ، وما زورت على التوراة التى اتجروا بها ، وراحوا يَمُنُّون على العرب الأميين بأنهم أهل كتاب ، وإنَّ مَثَلهم فيما حُمِّلوا من التوراة ثم لم يحملوها « كمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ؛ بِئْسَ مَثَلُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِين » .

وإذ ألقت قريش بكل ثقلها فى مقاومة الإسلام ، توارت يثرب عن مسرح الأحداث . حتى كانت أم القرى هى التى اتصلت بها ، والجولة المكية فى عنفوان احتدامها :

لقد راب مشركى قريش من أمر الدين الجديد الذى تصدوا لمقاومته فى بغى وعناد ، إصرارُ المصطفى والذين معه على الثبات فى وجه الوثنية الطاغية ، وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم ، لم يردهم عنها أذى مهلك ولا حصار منهك ، ولم تفلح معهم مساومة ولا مفاوضة . . .

ولقد جاوزت قريش المدى فى اضطهاد الدعوة ؛ والمسلمون يزدادون على الأذى صموداً واستبسالا ، وإن أحدهم ليلقى الموت فى سبيل دينه ،

ووجهه يتألق بنور الغبطة والرضى .

أفيمكن أن يكون هذا كله فى سبيل دعوة مزيفة ورسالة مفتراة ؟

وما الذى يَعِدُ به محمدٌ أصحابه ؟

إنه لا يملك أن يرد عن نفسه أذى قريش ، فضلا عن أن يرده عمن اتبعوه وآمنوا برسالته . وهو قد باع الدنيا ليدعو إلى ربه . فليس لديه مال يعوض به الذين أوذوا فى سبيل دعوته وخرجوا من ديارهم وأموالهم ، نجاة بدينهم من الفتنة والبلاء .

إنما يَعِدُهم محمد ثواب الآخرة ويبشرهم برضوان من ربه .

وفى الذين صدقوه ، مَن عُرفوا بالفطنة والحكمة وسداد الرأى، فهل كانوا بحيث يقبلون هذه الصفقة ويبيعون دنياهم بالآخرة ، لو لم يكونوا واثقين من صدق الوعد ؟

وقريش تفهم أن يجود العربى بحياته دفاعاً عن شرفه وذوداً عن حماه ،

وتفهم كذلك أن يبذل العربى حياته غضباً لموروث العقائد والتقاليد والأعراف ،

لكنها ما عهدت قط مثل ذاك الجود الباذل السخى ، نضالا عن عقيدة طارئة غير موروثة ، يدعو إليها بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق !

وراعها أكثر ، أنه ما من عربى لقى محمداً وأصغى إليه ، إلا آمن بنبوته وصدق برسالته ، وبايعه على الجهاد معه بالنفس والمال !

فماذا لو استفتت أحبارَ يهود بيثرب ، فى أمر هذا النبى البشر ، لعلهم يحسمون هذا الهاجس من قلق وارتياب ؟

إنهم أهلُ كتاب ، لديهم ما ليس لدى العرب الأميين من علم

بالنبوة والأنبياء . وعندهم تستطيع قريش أن تلتمس ما تطمئن به إلى موقفها العدائي من بشر يدعو إلى دين سماوى جديد !

وكان الأمد قد طال على يهود . فى انتظار ما توقعت من حرب بمكة . تقضى على الإسلام وتنهك قريشاً . فتفتح ليهود أبواب مكة الموصدة فى وجوههم . وتمكن لهم من النفاذ إلى المركز التجارى الأكبر ، فى جزيرة العرب .

وغاظ اليهود أن تشتد وطأة قريش على المسلمين دون أن ينفد احتمالهم أو يُغلب صبرهم .

كما غاظهم أن تلجأ قريش إلى الإيذاء والاضطهاد ، وإلى المساومة والمفاوضة ، ثم إلى المقاطعة والحصار ، دون أن تتجاوز بالموقف حافة الحرب !

فتى يفلت الزمام من أيدى المكيين فتخرج السيوف من أغمادها لتنهى الصراع الذى طال ؟

فى هذا كانت يهود تفكر ، حين جاءها خبر من مكة : عن تشاور قريش فى إرسال وفد إلى يثرب : يستفتى أحبار يهود فى أمر النبى ، بما لديهم من علم بالكتاب .

واستعدت يهود لانتهاز الفرصة السانحة ،

وشهدتهم مستعمراتهم فى يثرب وتيماء وخيبر وفدك ووادى القرى . . . يجتمعون إلى أحبارهم ويتدارسون .

وتذاكروا فيما بينهم ، أنهم الذين روجوا لبشرى نبىٍّ حان مبعثُه ، فهل يخونهم دهاؤهم ولا يسعفهم بما يحتالون به على الموقف ؟

إنها فرصة مواتية للكيد للإسلام وقريش معاً ، لو تركوها تفلت من أيديهم لعقُّوا طبيعتهم ودماءهم !

من هنا كان التشاور والمدارسة والتواطؤ ، إعداداً للفتوى يقدمونها إلى وفد قريش المنتظر . .

* * *

تسامع بنو هاشم بما عزمت عليه قريش من استفتاء اليهود بيثرب ، فى نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فتوجسوا شراً من هذه العصابة الخبيثة .

واسترجعوا ذكرى بعيدة للعم أبى طالب بن عبد المطلب : حين مرّ بالراهب بحيرى فى طريقه إلى الشام فى رحلة صيف . وكان قد صحب معه ابن أخيه محمداً ، غلاماً لم يبلغ العاشرة من عمره ، فلما رآه الراهب بحيرى ، توسم فيه ملامح غده ، ونصح له أن يعود به إلى بلده ، وأن يحذر عليه شرّ يهود .

وقد مر على ذلك التحذير بضعة وثلاثون عاماً ، نسى فيها بنو هاشم ما كان ، وغاب صوت الراهب التقىّ فى ضجيج الأحداث وكرّ السنين . حتى بدا لقريش أن تستفتى فى أمر محمد ، هؤلاء الأشرار الذين ذكرهم « الراهب بحيرى » لأبى طالب وحذره على ابن أخيه من شرهم .

على أنه ما كان لأحد من بنى هاشم أن يرد قومه قريشاً عما أرادوا : وقد فسد ما بينهم منذ انحازوا إلى أبى طالب فى نصرة محمد عليه الصلاة والسلام .

ولم يبق إلا أن ينتظروا وتنتظر مكةُ كلها ، ماذا يكون من فتوى الأحبار من يهود !

* * *

أخذ « النضر بن الحارث وعقبة بن معيط » طريقهما إلى يثرب موفدين من قريش إلى أحبار يهود ، التماساً لرأيهم فى نبوة محمد .

وكانت يهود قد استعدت للقائهما وأعدت فتواها .

وأسعفها مكرُها فلم تفجأ وافدى قريش بجحد صريح مباشر لنبوة طالما بشرت بها . بل آثرت أن تشغل القوم بمسائل تبلبل أفكارهم وتعنت نبيَّ الإسلام .

واحتال الأحبار على « النضر وعقبة » فاقترحوا عليهما أن يعودا إلى قومهما فليسألوا هذا الداعى عن ثلاث . قالوا :

« سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول : ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب .

« وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟

« وسلوه عن الروح ما هى ؟

« فإن أخبركم بذلك فاتبعوه ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم » .

وعاد الرجلان إلى مكة ، فاتجها فور وصولهما إلى منتدى قريش فأبلغاهم فتوى الأحبار .

وعجلوا إلى المصطفى يُعنتونه بالمسائل الثلاث ، فاستمهلهم صلى الله عليه وسلم ، عساه أن يتلقى من وحى ربه ما يجيب عن أسئلتهم .

لكنهم ألحوا عليه بإعناتهم ، وقد عرفوا أن لا جواب لديه عما يسألون ..

حتى نزلت سورة الكهف وفيها الجواب عن أسئلة الأحبار .

وخاب مكر يهود

وصدق الله تعالى :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ

سَعْيُهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ
أَعْمَالُهم فَلاَ نُقِيمُ لَهم يَوْمَ القِيَامةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا واتَّخَذُوا آياتِى وَرُسُلِى هُزُواً * »

صدق الله العظيم

* * *

وعادت يثرب فتوارت عن مسرح الأحداث إلى حين . .

دون أن تصرف سمعها عن الصراع الدائر بين الوثنية والإسلام بمكة ، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذناً بوشك تحول في متجه الأحداث . . .

بل لقد بدا أن يثرب حددت موقفها بالرفض البات للدعوة الإسلامية حين أوشكت أن تصل إليها مبكرة . .

وكان الخزرج . لا اليهود ، هم الذين حسموها بحد السيف :

حدث أن « سويد بن الصامت الأوسى » قدم مكة حاجاً في الموسم ، فلقيه المصطفى حين سمع بمقدمه ، فدعاه إلى الإسلام .

قال سويد :

« فلعل الذى معك مثل الذى معى ؟ »

ولما سأله صلى الله عليه وسلم عما معه ، أجاب : « مجلة لقمان » – يعنى صحيفة حكمته . . .

فتلا عليه المصطفى آيات من القرآن ، فلم يبعد منه حتى عاد إليه وقال :

« إن هذا لقول حسن »

وانصرف وهو يتدبر ما سمع . وكان شاعراً حكيماً لا يخفى عليه وجه القول . فقدم يثرب على قومه ، وراح يتحدث إليهم عن معجزة المصطفى ، فلم تلبث الخزرج أن قتلته ، وفى حسابها أن يثرب ليست بحيث تحتمل وطأة دين جديد ، وحسبها ما لقيت من شر يهود ، يزعمون أنهم أهل كتاب !

* * *

وتكرر المشهد مع وفد آخر من الأوس جاءوا من يثرب ، وإن اختلف الأشخاص واختلفت الأسماء .

قدم « أنس بن رافع » مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم « إياس بن معاذ » يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . وسمع بهم المصطفى فأتاهم حيث نزلوا ، فعرض عليهم الإسلام وتلا آيات من القرآن .

قال « إياس بن معاذ » وكان فتى حدثاً :

« أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم فيه »

فما كان من زعيم الوفد ، أنس بن رافع ، إلا أن أخذ حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه الفتى وهو يقول زاجراً :

« دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا »

فصمت إياس . .

وقام عنهم المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد هموا بالارتحال عائدين إلى يثرب . . .

* * *

لكن منطق التاريخ لم يكن ليبقى يثربَ طويلا بمعزل عن الأحداث ، مهما يبدُ من ظاهر هذا الموقف أو ذاك !

حتى عام الحزن . في السنة العاشرة من المبعث ، لم يكن المصطفى عليه الصلاة والسلام قد خرج بدعوته من أم القرى ، مهد مولده ومنزل رسالته . إلا أن يلقى بعض الوافدين على الموسم ، فيدعوهم إلى الإسلام .

ففي مكة قبل سواها . كان ينبغي أن تستقر الدعوة ، كما يفرض التاريخ الديني العريق للبلد الحرام والبيت العتيق .

لكن عشرَ سنين من الصراع المرير بين الإسلام والوثنية القرشية ، بلغت بالجولة المكية ذروة تعقدها وفرضت أن تأخذ الأحداث متجهاً آخر . .

وبدأ المصطفى بالطائف ، فخرج من مكة يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ويرجو أن يقبلوا منه دعوته التي تصدت لها قريش بالمقاومة والاضطهاد ، بغياً وعناداً . .

خرج وحده ، فلما انتهى إلى الطائف اتجه إلى ثلاثة إخوة ، أبناء عمرو بن عمير الثقفي ، هم يومئذ سادة ثقيف . وكان أحدهم متزوجاً من قرشية من بني جمح . فجلس إليهم حيث وجدهم في بستان لهم ، ودعاهم إلى الله سبحانه ، والتمس نصرتهم .

فكان رد أولهم ، أنه يمرط ثياب الكعبة — أي ينزعها ويرمي بها — إن كان الله قد أرسله !

ورد الثاني : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

وقال ثالثهم : والله لا أكلمك أبداً ! لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ، فما ينبغي لي أن أكلمك !

فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ،

وكان كل ما طمع فيه منهم ، أن يكتموا أمره معهم ، كيلا تزداد قريش جرأة عليه .

لكنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وهما فيه . فجلس عليه الصلاة والسلام هناك . وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف !

رفع المصطفى وجهه إلى السماء وقال في ضراعة وابتهال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

فكأنما تحركت لضراعته رحم ابني ربيعة ، فبعثا إليه بعض العنب مع غلام لهما نصراني يدعى « عداس » .

ودهش « عداس » حين سمع المصطفى يقول : « باسم الله »

قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

ولما حدثه المصطفى عن الإسلام ، أكب عليه يقبل رأسه ويديه وقدميه . .

ولحه سيداه ، وانتظرا حتى عاد إليهما ، فلما سألاه :

— مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

أجاب : يا سيدىَ : ما فى الأرض خيرٌ من هذا ، لقد أخبرنى بما لا يقوله غيرُ نبى .

قالا : ويحك يا عداس ، لا يصرفنَّك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

رجع المصطفى إلى مكة محزوناً يائساً من خير ثقيف ، والموسمُ قد أهل . فمضى على عادته يعرض دعوته على وفود القبائل العربية التى سعت إلى الحرم

وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا قليلا ممن آمن به . .

وبدت الجولة فى أولها ، مدعاة إلى يأس وقنوط :

سعى إلى « منى » حيث مجتمع الحاجّ ، فوقف على الحشود هناك يقول :

« يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به » .

فخرج له من جمع قريش ، رجل أحول وضىء ، له غديرتان وعليه حُلة عدنية ، فقام فى الناس وقال :

« يا بنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعُزّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه »

سأل سائل لا يعرفه :

— من هذا الذى يتبع محمداً ويردّ عليه ما يقول ؟

وأجاب مجيب :

ـــ ذاك عمه . عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب !

* * *

وانتظر المصطفى حتى انصرفت القبائل من « مِنى » إلى منازلها فى مكة ، فأتى كندة فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه . .

وكذلك ردّه بنو كلب . لم يقبلوا منه دعوته . .

ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم ، فلم يكن أحد من العرب أقبحَ عليه ردًّا منهم .

وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة ، فتداولوا أمره فيما بينهم ، وإن أحدهم « فراس بن عبد الله بن سلمة العامرى » ليقول :

« والله لو أنى أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب » .

ثم قام إلى المصطفى فقال يساومه :

« أرأيتَ إنْ نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ »

قال عليه الصلاة والسلام :

« الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء »

ورد المساوِم عن بنى عامر :

« أفنهدف نحورَنا للعرب دونَك ، فإذا أظهرك اللهُ كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجةَ لنا بأمرك » .

* * *

ومن حيث بدت الأبواب كلها موصدة فى وجه الإسلام ، ظهرت يثرب على الأفق الشمالى البعيد. تجذب إليها مجرى الأحداث من دائرته المقفلة فى أم القرى !

خرج المصطفى فى الموسم كدأبه فى كل موسم ، يعرض الإسلام على وفود القبائل . .

وبلغ « العقبة » فلقى رهطاً من العرب . سألهم لما عرف أنهم من الخزرج :

— أمِنْ موالى يهود ؟

قالوا : نعم

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

فجلسوا ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلامَ وتلا عليهم القرآن .

وذكروا ما طالما سمعوا من اليهود الذين غزوهم ببلادهم، عن نبى حان زمانه ، يظاهرونه على عرب يثرب من أوس وخزرج فيقتلونهم قتلَ إرم وعاد . قال بعضهم لبعض :

« يا قوم، تعلموا والله إنه لَلنبىُّ الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقُنكم إليه » . .

وأجابوه صلى الله عليه وسلم إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا :

« إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجْمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك » .

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدين إلى بلادهم وقد آمنوا بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام .

* * *

وشُغلت يثرب بأمر الإسلام ، منذ عاد إليها الخزرجيون الذين بايعوا المصطفى :

العرب من أوس وخزرج ، يُلقون أسماعهم إلى حديث هؤلاء الأنصار ، ولا يكاد يفرغ لهم عجب لما يشهدون من حماسهم للدعوة ، وصدق حبهم للرسول وإيمانهم برسالته .

ويهودُ فى شغلٍ شاغل بهذه البادرة الخطرة .

كان الخزرجيون أصحاب البيعة الأولى ، ستة نفر أو سبعة ، لم يكن عددهم هو الذى شغل يهود ، بقدر ما شغلهم أن الدين الإسلامى وصل إلى يثرب ، وكان الظن أن يبقى محصوراً فى مكة بين أحياء قريش ، يمزقها بدداً .

وقد راحوا يترصدون خطوات الدعاة الأولين من الأنصار ، متعلقين بالرجاء فى أن عرب يثرب لن يلبثوا أن يختلفوا على الإسلام ، وأن الأوس لن ترضى عن دعوة حملها رهطٌ من الخزرج ، ومثلُ هذا الخلاف المتوقع ، مرجو لأن يُلهب نار العداوة والبغضاء بينهم ، ويمدها بوقودٍ يزيدها حدة وضراماً !

لكن عاماً مضى ، والأنصار الخزرجيون ماضون فى دعوتهم لا يصدهم عنها من قومهم صادٌّ ، حتى إذا حل موسم الحج ، ذاع خبر من مكة أن اثنى عشر يثربيًّا ممن وافوا الموسم بمكة ، لقوا الرسول عند العقبة وبايعوه ...

وجن غيظ يهود وهى ترى فى هذه البوادر إيذاناً بتحول خطير فى حركة الدعوة الإسلامية التى عاشت فى مكة أكثر من عشر سنين ؛

صامدة لكل ما قاومتها به الوثنية القرشية من أذى واضطهاد وحصار : رافضة كل ما عرضت عليها من مساومات .

وانتظرت يثرب حتى عاد هؤلاء الرهط من الأنصار ؛ وفى الظن أنهم خزرجيون كسابقيهم أصحاب البيعة الأولى .

فكانت المفاجأة حقاً أن فيهم ثلاثة من زعماء الأوس : مع تسعة من مختلف أحياء الخزرج . .

جمعهم الإسلام ووحد بينهم ، وقد كانوا من قبل متباغضين ، بعضهم لبعض عدو .

* * *

استقبلت يثرب مع الأنصار العائدين من بيعة العقبة ، صحابياً جليلا من صميم قريش ، هو « مصعب بن عمير بن هاشم » موفداً من قبل المصطفى عليه الصلاة والسلام مع الذين بايعوه من اليثربيين ، ليقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين . .

ونزل مصعب على أنصارى من سادة الخزرج : « أسعد بن زرارة » كبير بنى النجار ، أخوال عبد الله بن عبد المطلب ، والد المصطفى . .

وكانت يثرب قد تسامعت قبل ذلك بما شاع وذاع من أمر مصعب ابن عمير .

قبل إسلامه كان فتى مكة شباباً وجمالا وزهواً ، تلتمس له أمه لفرط شغفها به ، أفخر الثياب وأندر العطور حتى ليتذكره المصطفى فيقول :

« ما رأيت بمكة أحسن لِمَّةً ولا أرق ولا أنعم نعمة ، من مصعب بن عمير » .

بلغ مصعباً يوماً ، أن محمد بن عبد الله الهاشمى ، فى دار الأرقم

يدعو إلى الإسلام . فاتجه إليه من تلقاء نفسه وبايعه . وكتم إسلامه إشفاقاً على أبويه اللذين شغفهما حباً . حتى لمحه « عثمان بن طلحة » يصلى صلاة المسلمين . فأخبر قومه فأخذوه وحبسوه ليفتنوه عن دينه . فلم يزل محبوساً إلى أن لاحت له فرصة الإفلات فهاجر بدينه إلى أرض الحبشة .

وعاد إلى مكة مع من عاد من مهاجرة الحبشة حين بلغتهم بشرى انهيار الحصار الذى ضربه المشركون على المصطفى وصحابته ومن والاه من بنى هاشم ، فما رأت مكة فتى مثل مصعب ، استبدل بأناقة المظهر بهاء الإيمان ، وبخيلاء النعمة جلال التقى وتواضع الخشوع .

واختاره المصطفى من بين الصحابة ، ليكون إمام الأنصار فى يثرب فأقام عاماً هناك يتنقل بين دورها ، يؤم المسلمين فى الصلاة ويعلمهم الدين ويتلو عليهم القرآن ، فتخشع له القلوب والضمائر متفتحة لنور الهدى . . .

* * *

خرج « مصعب » يوما مع « أسعد بن زرارة ، سيد الخزرج » — وكان منزله عليه — إلى حى بنى عبد الأشهل . واجتمع إليهما رجال من الأنصار فسمع بمقدمهما « سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير » وهما يومئذ سيدا قومهما ، وكلاهما مشرك على دين عشيرته وآبائه .

وتحرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالته ، فحرض أسيد بن حضير على أن يقوم فيرده وصاحبه عن الحى . قال :

« لا أبا لك ! انطلق إلى هذين الرجلين ، أسعد ومصعب ، اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا . فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث علمت ، كفيتك ذلك : هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدما » .

فالتقط «أسَيْد بن حضير» حربته ثم أقبل إليهما فقال متوعدا :

« ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ! »

قال مصعب :

« أو تجلس فتسمع . فإن رضيت أمراً قبلته . وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ؟ »

فركز أسيد حربته وجلس يسمع حديث مصعب عن الإسلام وتلاوته للقرآن . وقد زايله تقبضه وتجهمه . ثم قال متهلل الأسارير :

« ما أحسن هذا الكلام وأجمله » .

وأسلم . . .

وانطلق عائداً إلى حيث ترك « سعد بن معاذ » فى جمع من قومه . فما لمحه سعد حتى قال لمن حوله :

« أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم » .

ثم سأله عما فعل بأسعد بن زرارة ومصعب بن عمير ، فردَّ أسيد محاذراً :

« كلمتُ الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ! وقد نهيتهما ، وإنى لأخشى على ابن خالتك من بعض القوم » .

فقام سعد مغضباً ، فما أبعد حتى رأى أسعدَ ومصعباً يتجهان إليه مطمئنين ، فعرف أن أسيد بن حضير إنما أراد له أن يسمع منهما .

وتجاهل مصعباً ، وقال لأسعد ، ابن خالته :

« يا أبا أمامة . أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمتَ هذا منى . أتغشانا فى ديارنا بما نكره ؟ »

همس أسعدُ لصاحبه :

« أى مصعب . جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك اثنان ! »

وأقبل مصعب على سعد بن معاذ ، فقال له مثل الذى قال لأسيد ابن حضير :

« أو تقعد فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ »

قال ابن معاذ : « أنصفت ! »

وتكلم مصعب ، وقرأ القرآن . . .

وقبل أن يلفظ سعد بكلمة ، عرف القوم الإسلام فى وجهه ، لإشراقه وتهلله .

وأسلم سعد ، ومضى من فوره إلى قومه فسألهم :
« كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ »

قالوا : « سيدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة » .

فدعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا جميعاً ، فما أمسى فى حى بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ، إلا مسلماً ومسلمة . .

وكانت دور المسلمين تتجاوب منذ أول بيعة فى العقبة ، بشعرٍ فى السعدين : سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، قبل إسلامهما :

فإن يُسلم السعــدان يصبحْ محمدٌ
بمكّةَ لا يخشى خلافَ المخالفِ
فيا سعد . سعدَ الأوس : كن أنت ناصراً
ويا سعدُ . سعدَ الخزرجين الغطارفِ
أجيبا إلى داعى الهدى وتمنّيا
على اللهِ فى الفردوسِ منية عــارف

دون أن يُعرف لمن الشعرُ ، وكأنما هو هاتف يشدو بما كان المسلمون يرجونه من إسلام هذين الرجلين . . .

وهذا سعد الأوس قد أسلم !

وبعده ، فى العقبة الكبرى ، أسلم سعد الخزرج : ابن عبادة ، وكان أحد اثنى عشر نقيباً ، للذين بايعوا المصطفى فى العقبة الكبرى .

وتوقعت يهود : بل توقعت يثرب كلها ، أن يكون لهذا الأمر ما بعده . . .

* * *

بعد إسلام « سعد بن معاذ » وكل قومه من بنى عبد الأشهل ، فشا الإسلام فى يثرب ، فما من دار للعرب هناك ، إلا وفيها للدين الجديد أنصار . . .

وأهلّ موسم الحج ، بعد اثنى عشر عاماً من المبعث .

وخرج « مصعب بن عمير » من يثرب ساعياً إلى أم القرى ، يصحب رهطاً من الأنصار ، فيهم من لم يلق المصطفى بعد . . .

وفى الركب اليثربى ، حجاج آخرون غير مسلمين . . .

ودنا الركب من مشارف مكة ، فتهللت وجوه الأنصار وهفت قلوبهم إلى لقاء نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وهم على موعد معه بالعقبة ،

فى ليلة حددوها من ليالى التشريق . دون أن يعلم بقية قومهم بهذا الموعد ، فيما عدا « عبد الله بن عمرو » الذى أسرّ إليه الأنصار بموعدهم مع نبيهم المصطفى . وقالوا له :

« يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه »

* * *

وفى الليلة الموعودة ، أوى الأنصار إلى مضاجعهم مع سائر قومهم فى رحالهم . فلما مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يتسللون تسلل القطا مستخفين ، حتى وافوه عند العقبة .

كانوا ثلاثة وسبعين رجلا ، فيهم أبو جابر عبد الله بن عمرو . وامرأتان : أم عمارة ، نسيبة بنت كعب ، وأم منيع ، أسماء بنت عمرو ابن عدى .

قال العباس بن عبادة بن نضلة ، يخاطب قومه :

« يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ »

أجابوا : نعم . .

قال : « إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ! فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة » .

قالوا للمصطفى : ابسط يدك

فبسط عليه الصلاة والسلام يده فبايعوه ، الخزرج منهم والأوس .

وأمرهم المصطفى فاختاروا من بينهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

قال أحد النقباء . العباس بن عبادة :

« يا رسول الله . والله الذى بعثك بالحق . إن شئت لنَميلنّ على أهل منى . من المشركين . غداً بأسيافنا . »

فرد عليه الصلاة والسلام :

« لم نؤمر بذلك . لكن ارجعوا إلى رحالكم »

ورجعوا إلى رحالهم فتسللوا إلى مضاجعهم فناموا مطمئنين . والدنيا من حولهم ساهرة لا تنام !

* * *

لم يكن النبأ الخطير لبيعة العقبة الكبرى . بحيث يخفى على المشركين من قريش . وأصحابُ العقبة هذه المرة . خمسة وسبعون من الخزرج والأوس ، بايعوا المصطفى على أن ينصروه ويمنعوه . .

ومتى ؟ وأين ؟

فى ليلة من ليالى التشريق بموسم الحج ،

وفى مكة ، معقل قريش والعاصمة الدينية للوثنية العربية .

وقبل أن يسفر الصبح ، تسرب النبأ إلى مكة فهاج غضب المشركين ، وإذ ظنوا أن المبايعين من الخزرج دون الأوس بادر إليهم نفر من طواغيت قريش فقالوا بين وعد ووعيد :

« يا معشر الخزرج . إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا . وإنه والله ما من حىٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم . منكم» .

فهب مشركو الخزرج يحلفون لهم أنه ما كان من ذلك شىء ، وما علموه . .

ولم يطمئن القرشيون . بل ذهبوا إلى « عبد الله بن أُبَىّ بن سلول

الخزرجى » — وكان يمنى نفسه بملك يثرب بمؤازرة يهود — فسألوه ، فأنكر الأمر كله إنكاراً باتاً ، وقال لقريش :

« إن هذا الأمر لجسيم : ما كان قومى ليتفوتوا علىّ بمثله ، وما علمته كان ! »

وانصرفوا وما يزال فى نفوسهم ريب مما بلغهم من الأمر الجسيم ، فما زالوا يتثبتون حتى علموا يقيناً أنه قد كان لقاءٌ فى العقبة على موعد بين محمد وأنصاره ، وأن بضعة وسبعين يثربيًّا من الخزرج والأوس قد بايعوه ، وأن أحد نقبائهم قال فيما قال ، جواباً عن سؤال محمد فى البيعة :

« نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك ... فبايعْنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة — أى السلاح — ورثناها كابراً عن كابر . . »

وكرّت قريش راجعة إلى منزل الأنصار فإذا بهم قد شدوا رحالهم وأبعدوا فى طريقهم إلى يثرب

والإسلام معهم ، قد بدأ بيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم فى اتجاه الأحداث :

فى قلب الحجاز معقل الوثنية القرشية والعربية .

وفى الشمال ، بمنطقة يثرب وما حولها ، وقد كانت حتى ذلك الحين معقلا ليهود .

* * *

ببيعة العقبة الكبرى . أوشكت الجولة الأولى من جولات الصراع بين الإسلام والوثنية . أن تنتهى فى مكة : لتبدأ جولة أخرى . . .

بعد أن استنفدت تلك المواجهة الأولى ، كل ما لدى قريش من وسائل لمقاومة الدعوة ، دون أن تنتقل من موقفها على حافة الحرب ، إلى صدام مسلح .

وبدأ التاريخ يلتفت إلى يثرب التى يتجه إليها مؤشر الأحداث ، ويستعيد ما طوى من قديم أخبارها :

من قديم بعيد موغل فى أعماق الزمن إلى عصر ما بعد الطوفان ، بدأ الوجود العربى فى يثرب والحجاز . .

والرواية العربية تقول إن سفينة نوح رست قريباً من « بابل » فى موضع سمى « سوق الثمانين » بعدد من كانوا فى السفينة الناجية من الطوفان ، وقد مكثوا هناك حتى كثروا وضاقت بهم المنطقة ، فتفرقوا :

واتجه بنو عبيل ، أخى عاد ، إلى موضع يثرب — وفى الرواية أنه اسم أحد أبناء عبيل — فنزلوا به وعمروه. ثم مالوا إلى موضع آخر فى المنطقة دهمهم به سيل جحفهم فسمى « الجحفة » .

وظلت يثرب مهجورة إلى أن عمرتها قبيلة من العرب القحطانية العاربة ، بعد تصدع سد مأرب .

هذه القبيلة العربية الصميمة ، هى الأوس والخزرج .

أخوان شقيقان ، أبوهما « عمرو بن عامر » آخر ملوك سبأ قبل خرابها .

وأمهما « قيلة » التى ينسب إليها عربُ يثرب فيقال لهم « بنو قيلة »

ونزح إخوتهم « بنو جفنة بن غسان » إلى أرض الشام ؛ فأسسوا بها إمارة غسان العربية .

وآخرون من « جرهم » نزلوا حول مكة . وهم الذين أصهر إليهم « إسماعيل بن إبراهيم الخليل » جد العرب العدنانية .

أقام بنو قيلة فى يثرب دهراً طويلا فى أمن وسلام ورخاء ونعمة ؛ والمنطقة خالصة لهم . حتى طرأ عليهم من الشمال شراذم من فلول العصابات اليهودية ، فارين من وطأة الرومان الساحقة . وحطوا على أخصب منطقة هناك . فما لبثوا أن أنشبوا مخالبهم فيها واستنزفوا خيرها ، وأقاموا لهم مستعمرات حصينة فى يثرب وقريظة وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى ؛ وأثروا ثراء فاحشاً على حساب الوجود العربى الذى بدأ يهتز من وطأة الغزاة .

وقد حاول العرب ، أول الأمر ، أن يأمنوا شر يهود بعقد حلف جوار معهم . وفى ظل ذلك الحلف استطاع بنو قيلة أن يواصلوا حياتهم ويمارسوا نشاطهم ، فلما صار لهم مال وعدد ، قلق اليهود وخافوا على وجودهم المغتصب ، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى بينهم ، فأقامت الأوس والخزرج زمناً خائفين أن تجليهم يهود عن أرضهم .

إلى أن شب « مالك بن العجلان ، أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج » وسوّده الحيان ، فكان هو الذى تصدى لأفاعى يهود ؛ وقتل بضعة وثمانين من رءوسها ، فانكمشوا خائفين ، يلعنونه فى بيَعهم ومعابدهم كلما دخلوها . ولجئوا إلى أحياء العرب يستجدون الحماية والجوار ؛ وقد ذلوا وانكسرت شوكتهم وقل امتناعهم . .

* * *

وإنما مكن لهم من يثرب بعد ذلك ، ما شب بين الأوس والخزرج

من خصاء خبٍّ فيه يهود ووضعوا . وسهروا على إلهاب ضرامه . لتخلو لهم الأرض الطيبة . . .

وبدأت مرحلة مظلمة فى تاريخ يثرب . استغرقت بضعة قرون قبل الإسلام . لم تنطفئ فيها نار الحروب بين الأوس والخزرج ، وفى كل حرب منها نلمح أثر اليهود فى تدمير الوجود العربى هناك .

وآذن العصر الجاهلى بمغيب ، وهذا العنصر الخبيث يتربص بالأوس والخزرج الدوائر . ليميل مع المنتصر منهما ويسلب المهزوم .

والمستعمرات اليهودية فى شمال الحجاز تزداد ثراء بما تستنزف من خير الأرض . ومرافق البلاد الحيوية قد قبضت عليها مخالب الذئاب التى فرت من مخالب النسر الرومانى . . .

* * *

وقد كانت آخر حرب بين الأوس والخزرج « يوم بعاث » قبل بيعة العقبة الكبرى بأربع سنوات . ودَوْرُ يهود فيها معروف مشهور :

فحين ظهرت بوادر الحرب بين بنى قيلة ، تدخل يهود بنى قريظة يلهبونها بالتواطؤ سراً مع الأوس .

فلما علم الخزرج بهذا التواطؤ : بعثوا إلى يهود منذرين :

« إنكم إن فعلتم لم نَنم عن الطلب أبداً .. وأسلمُ لكم أن تدَعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا » .

وكان رد يهود على نذير الخزرج :

« إنه قد كان الذى بلغكم ، والتمست الأوس نصرنا . وما كنا لننصرهم عليكم أبداً » .

لكن الخزرج أصروا على أن يأخذوا رهائن من غلمان يهود ، ضماناً

لعدم غدرهم . فدفعوا إليهم أربعين غلاما يهوديًّا ، وإن قائلهم ليقول :

« خاوهم يقتلوا الرهن ، إن هى إلا ليلة يصيب فيها أحدُكم امرأته ، حتى يولد له غلام مثل الرهن ! » . .

وغدرت يهود بوعدها للخزرج حين لمحت غلبة الأوس عليهم .

وانهزمت الخزرج يوم بعاث ، ووضعت فيها الأوس السلاح ، وسلبتهم قريظة والنضير .

اجتاحت العصابة اليهودية دور الخزرج تنهب وتسلب ، حتى أتوا دار « عبد الله بن أبيّ بن سلول » ليهدموها ، فاشترى منهم الأمان بدفع رهائنهم إليهم ! ومن ذلك اليوم بدأ بينه وبينهم حِلفُ الشيطان ...

وكان لابد من حرب جديدة يصلاها عرب يثرب ، تصفية ليوم بعاث .

والأمر فى مثلها لا يعدو انطلاق شرارة من هنا أو من هناك ، تؤجج ضرام الجذوة التى لبثت متقدة قروناً ، تلتمس بين حين وآخر من ينفخ فيها ، لتستعر بوقود من رجال الأوس والخزرج .

وقد كان الخزرجيون أصحاب الثأر لبعاث ، ومن هنا كان سعيُ الأوس إلى مكة ، التماساً لحلف قريش على الخزرج .

ومن حيث توقعت يثرب أن تلتهب الجذوة بشرارة هذا الحلف ، وألقت عاصمة الشمال سمعها إلى مكة فى انتظار عواقب المفاوضة بين أنس ابن نافع فى وفد الأوس ، وبين زعماء قريش ،

جاءت المعجزة من هناك فأطفأت الجذوة وبددت رمادها هباء منثوراً . .

وكان عجباً من العجب ، أن تأتى يثرب بشرى السلام من مكة ، فى الوقت الذى بلغت فيه الجولة المكية بين الإسلام والوثنية ذروة احتدامها وآذنت بصدام مسلح !

وحين همّ التاريخ بأن يضيف حرباً جديدة إلى الحروب التى مزقت الأوس والخزرج .

وقف بعد بيعة العقبة الكبرى فطوى الصفحات الداميات التى خضبت حياة يثرب قروناً ستة . ليبدأ صفحة جديدة بآية الإسلام ، التى منّ الله بها على المؤمنين الأنصار . فأصبحوا بنعمته إخواناً .

وكانت عبرة . أن تجمع العقيدة ما تفرق وانتثر من شتات القوم ، وأن تزيل ما تراكم فى قلوبهم من ثارات وأحقاد ، وتنسخ جاهليتهم المخضبة بالدماء . .

وفى ظل هذه العقيدة الجامعة المؤلفة للقلوب ، وتحت لوائها الميمون ، التقى الأوس والخزرج إخواناً فى الدين ، وعادوا بعد بيعة العقبة الكبرى أنصاراً للإسلام ونبيه ، فكانوا هم الدعاة الأولين الذين حملوا نوره إلى عاصمة الشمال فى الحجاز ، وهيئوها لاستقبال المهاجر العظيم عليه الصلاة والسلام . . .

* * *

تلاحقت الأحداث بعد بيعة العقبة الكبرى ...

فقدت قريش ما بقى من رشدها ، فصبّت على المسلمين حمماً من الأذى والاضطهاد

والتقطت يهود أنفاسها ، أملا فى أن تأكل نار الحرب الجمعين من أهل مكة !

لكنهم فوجئوا بتدفق المهاجرين من مسلمى مكة نحو يثرب ، بتوجيه من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حيث نزلوا على الأنصار ، إخوانهم فى الدين ، بمأمن من قريش . .

وأمست دور المهاجرين بمكة موحشة خلاء !

لم يبق منهم فى أم القرى ، غير من حُبِس أو فُتن ، إلا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصاحباه أبو بكر الصديق وعلىّ بن أبى طالب .

وتوقعت قريش أن يلحقوا بالمسلمين فى دار الهجرة ، فهل تدع الأمر يفلت من يدها بعد ثلاثة عشر عاماً من الصراع المرير ؟

لا بد من ضربة باترة ، تحسم الأمر كله .

* * *

وقد حاولتها قريش :

نقل كُتاب السيرة ومؤرخو الإسلام ، أن قريشاً « لما رأت أن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا بيثرب داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذِروا خروج الرسول إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ؛ فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار جدهم قصى بن كلاب ، حيث كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها — يتشاورون فيما يصنعون

فى أمر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين خافوه .

قال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً » .

وتعددت مقترحاتهم . حتى قال أبو جهل بن هشام :

ـ والله إن لى لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد !

سألوه : وما هو يا أبا الحكم ؟

أجاب : « أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليداً نسيباً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً فيعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه . فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضُوا منا بالعقل فعقلناه لهم » ـ يعنى الدية . . .

وانصرفوا وهم مجمعون على هذا الرأى ، وحددوا ليلتهم لذلك موعداً . .

وفى تلك الليلة ، خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام ناجياً إلى دار هجرته . . .

* * *